تاريخ المسكرات عند العرب

واقوال شعرائهم فيها

من تصفح كتب متن العربية رآها اغنى اللغات باسماء الخمور واوصافها واستدلّ من ذلك على ان العرب كانوا من اشد الناس معاقرة للخمر ومن امهرهم تفنّناً في استخراجها وتعليلها فانهم كانوا يستخرجونها من العنب والشعير والذرة والقمح والزبيب والتمر واليسر والكشوث والانمار على انواعها اي من كل ما يختمر كأنهم كانوا يستخرجون السوائل من هذه المواد ويتلونها ويقوتها الى حين الحاجة اليها فاذا حفظت من الاختمار شربوها شراباً حلواً والاّ شربوها خمراً. وكانوا يطيبون الخمر بالافاويه ويعتقونها ويبردونها ويقلونها حتى يذهب نصفها او ثلثاها . والادلة قاطعة على ذلك كله في كلات اللغة وهي اثبت تاريخ وادلّ دليل فمنها قولهم الصهباء وتفسيرهم اياها « بالخمر المعصور من العنب الابيض » وقولهم ابنة الكرم وابنة العنب ونحو ذلك مما يدلّ دلالة واضحة على انهم كانوا يعصرونها من العنب ولعلّه كان كثيراً في البلاد التي احتلوها من العراق الى البتراء وهي الآن قفار جرداء

ومنها قولهم الغبراء وتفسيرهم اياها بخمر الشعير والذرة ومنهُ قول الحريري

وزارعاً ذرة حتى اذا حصدت صارت غبراء يهواها أخو الطرب

وقولهم الكميت وتفسيرهم اياهُ بنبيذ التمر وفي ذلك يقول العباس ابن مرداس

فان تسقَ من اعناب وجٍّ فانما لنا العين تجري من كميت ومن خمر

وقال ابو حنيفة الكميت شراب يتخذ من الذرة والشعير

وقولهم البتع وتفسيرهم اياهُ بنبيذ العسل . وفي الحديث سئل النبي عن البتع فقال كلّ شراب اسكر فهو حرام. وعن ابي موسى الاشعري انهُ خطب فقال خمر المدينة من البسر والتمر. وخمر اهل فارس من العنب. وخمر اهل اليمن البتع وهو من العسل. وخمر الحبش السكركة

وقولهم السكر وتفسيرهم اياهُ بالشراب المتخذ من التمر والكشوث . قال ابو حنيفة السكر يتخذ من التمر والكشوث يطرحان ساقاً ساقاً ويصب عليه الماء

ونقل صاحب التاج ان عمر فسر الانبذة فقال البتع نبيذ العسل والجعة نبيذ الشعير والمزر من الذرة والسكر من التمر والخمر من العنب . ويسمون الشراب المطيب بالافاويه

مطيباً او مفوهاً والذي ذهب ثلثاهُ مثلثاً والذي ذهب نصفهُ نصفاً

وكانوا يصفون الخمر بالمروقة والصافية ومنهُ قول ابي نواس

قامت بابريقها والليل معتكر فلاح من وجهها في البيت لألاء
وارسلت من فم الابريق صافية كأنما اخذها للعقل إغفاء
ارقّت عن الماء حتى ما يلائمها لطافةً وخفى عن شكلها الماء

ويجلبونها من بابل وقرطبة وغيرها من شاسع الاقطار قال ابن سناء الملك

شهدتُ بان اشهد والمسك ريقهُ وما كنت لو لم اختبرهُ لاشهدا
وان الدلاف البابلية لحظهُ والاّ سلوا انسانهُ كيف عربدا

وقال المتنبي

سقتني بها الشطرنجيُّ مليحة على كاذب من وعدها ضوء صادق

ويدمنونها في دنانها حتى تصفو وتتيق ومن ذلك سميت بالمدام قال ابن المعتز

اهلاً بقطر قد انار هلالهُ فالآن قاعدُ الى المدام وبكّر

وبالمدامة قال عنترة العبسي

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلَّم
بزجاجة صفراء ذات اسرّة قُرنت بازهر في الشمال مفدَّم

وبالمعتقة وهي التي عتقت دهراً طويلاً ومنهُ قول ابي نواس

معتقة صاغ المزاج لرأسها اكاليل درٍّ ما لناظمها سلكُ
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر اصلحهُ السبكُ

ويروّقونها حتى تصفو ويزول عكرها ومنهُ قول السري

يدير محياهُ على كل ناظر باقداح احداق مداماً مروّقا

ولا نطيل الكلام في هذا المعنى لان ما ذكرناهُ منهُ كافٍ للدلالة على ما قدمناهُ وهو ان العرب كانوا يعرفون انواعاً مختلفة من الانبذة وكانوا يعلونها ويشربونها قبل الاسلام وبعدهُ. ولما جاء الشرع الاسلامي حرَّم الخمر مطلقاً وقال انها والازلام والميسر رجس من عمل الشيطان لكن العلماء اختلفوا في اطلاق تحريمها قال ابن الرومي

اباح العراقيُّ النبيذ وشربهُ وقال حرامان المدامة والسكرُ
وقال الحجازيُّ الشرابان واحد فقلت لنا بين اختلافهما الخمرُ
سآخذ من قوليهما طرفيهما واشربها لا فارق الوازر الوزرُ

وجاء في كتاب المحاضرات للراغب الاصبهاني ان الحسين بن موسى استحضر ابن

عياش ابن ادريس فسألها عن النبيذ فقال ابن عياش حلال وقال ابن ادريس حرام فقال ابن عياش ادركنا ابناء الصحابة والتابعين بهذه المدة يشربونها في الولائم حلا كانت او حراماً وبكاؤنا على الدين اشدُّ من بكائنا على النبيذ

وليس من غرضنا الخوض في هذا الموضوع وانما نقول ان تاريخ الخلفاء من بني اميَّة وبني العباس واكثر الذين جاءوا بعدهم يدل على ان الناس عامتهم وخاصتهم لم يرتدعوا عن المسكر . فقد جاء في المحاضرات ان الوليد كان يشرب يوماً ويدع يوماً وسليمان يشرب في كل ليلة وهشاماً يسكر في كل جمعة ويزيد بن الوليد يدمن الشرب فكان دهرهُ بين سكر وخمار . وكان المنصور يشرب عشيَّة الثلاثاوات والمأمون يشرب الثلاثاء والمعتصم لايشرب الخميس ولا الجمعة . وكان ابن المعتز لا يشرب الاَّ قليلا ويقول الليل امتع لا يطرقك فيهِ خبر فاطع ولا سبب مانع والنهار ابرص لا يتم فيهِ سرور . وقال بشار

ما نام واشٍ وغاب ذو حسدٍ فاشرب هنيئاً خلا لك الجو

واكثر ابن المعتز من ذكر الشراب في أشعارهِ ومن قولهِ فيهِ

اشرب عقاراً كانها قبسٌ قد سبك الدهر تبرها فصفا

يدي لثام الابريق من دنها كأنهُ راعف وما رعفا

ومنهُ

أيا عاذلي هلاَّ اشتغلت بسامعٍ كما انا مشغول بكاسٍ عن العذلِ

وكان العلماء والفضلاء ينهون عنها ويشددون الملامة على شاربها وذلك يدل على تهافت الناس عليها والاَّ لم يكن الى اللوم سبيل . قيل حضر لصيّب عند عبدالملك ابن مروان فدعاهُ الى الشراب فقال اني لم اصل اليك بنفسي ولا بحسن صورتي وانما قربت منك بعقلي فان رأى الامير ان لا يحول بيني وبينهُ فعل وقيل للعباس ابن مرداس لو شربت النبيذ لازددت جرأة فقال ماكنت لاصبح سيد قومي وامسي سفيههم وادخل جوفي ما يحول بيني وبين عقلي

وقال الوليد للحجاج هل لك في الشراب فقال « لا يا امير المؤمنين وليس بحرام ما احللتهُ ولكني امنع اهل عملي منهُ واخاف ان اخالف قول العبد الصالح وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنهُ ». وسأل الخليفة المنصور ابا بكر الهذلي عن النبيذ فقال تعادت فيهِ السفهاء حتى كرهتهُ العلماء. وقال الخليفة المأمون اشرب النبيذ ما استبنتهُ فاذا استطبتهُ فدعهُ. ولما وقع الخلاف بين الامين والمأمون كان المأمون يخطب بخراسان بمساوىء الامين ويقول في مساوئهِ وما ظنكم بخليفة يقتني شاعراً ينشد بحضرتهِ جهاراً نهاراً في مجلسهِ هذا القول

ألا فاسقني خمراً وقلّ لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهرُ

ولقد فتحنا كتاب حلبة الكميت لشمس الدين محمد بن الحسن النواجي عند كتابة هذه السطور فاذا هو مشحون عما تحمرُّ منهُ وجنة الادب ويندى لهُ جبين الفضل. من ذلك ما روي عن حمَّاد الراوية قال «كنت محبًّا للوليد بن عبد الملك فلما تولى اخوهُ يزيد الخلافة هربت الى الكوفة فبينما انا في المسجد الاعظم اذ اتاني رسول محمد بن يوسف الثقفي وقال اجب الامير فدخلت عليهِ فقال ورد كتاب امير المؤمنين بحملك اليهِ وبالباب نجيبان فاركب احدهما وادفع اليَّ كيساً فيهِ الف دينار وقال هذه نفقة لمؤنتك فدخلت دمشق في اليوم الثامن ودخلت عليهِ فاذا هو جالس في دار مبلطة بالرخام الاحمر وفيها سرادق خز احمر في وسطهِ قبة حمراء من خز وفرشها وكلها فيها من خز احمر وعلى رأسهِ جاريتان عليهما ثياب حمر بيد كل واحدة ابريق وفي يد واحدة نبيذ احمر والاخرى نبيذ ابيض فلما واجهتهُ سلمت عليهِ بالخلافة فرد عليَّ وقال ادنُ يا حماد اتدري فيمَ بعثت اليك قلت لا قال في بيت شعر ذهب عني اولهُ فقلت من اي عروض وقافية قال لا ادري الاَّ انهُ بيت فيهِ ابريق فقلت في نفسي ان نفستني الرواية يوماً فالآن وفكرت ساعة ثم قلت لعم يا امير المؤمنين لعلهُ في قول تبع اليماني

بكر العاذلون في وضح الصبح يقولون لي اما تستفيقُ
ويلومون فيك يا ابنة عبد اللـــه والقلب عندكم موثوقُ
لست ادري اذ كثروا العذل فيها اعدوٌّ يلومني ام صديقُ
ثم نادوا الى الصبوح فقامت قينة في يمينها ابريق

فصاح يزيد وقال هو والله الشعر بعينهِ وشرب وقال يا جارية اسقهِ فسقتني كاساً اذهب ثلث عقلي ثم استعاد الشعر وشرب وقال اسقهِ فسقتني الكاس الثانية ولما شربت ذهب ثلث عقلي الثاني ثم استعاد مني الشعر وشرب وقال يا جارية اسقهِ فقلت قد ذهب ثلثا عقلي يا امير المؤمنين فقال سل حاجتك قبل ان يذهب الثلث الآخر فقلت احدى الجاريتين قال هما لك وما عليهما ومائة الف درهم يحسن بها سيرك ثم ناولتني الجارية كاساً فشربتها ونهضت وقد ذهب عقلي فعدت الى دار الضيافة فانتبهت آخر الليل واذ بشمع يوقد والجاريتان ترحلان الامتعة والبغال تحمل ماهما من اثاث وغيره واصبحت وقد قبضت المال وانصرفت وانا ايسر اهل الكوفة

ومنهُ ان الخليفة هرون الرشيد قال للفضل بن يحيى بلغني انهُ قدم اسمعيل بن صالح وانا اريد ان اراهُ قال يا سيدي اخوهُ عبد الملك في حبسك وقد نهاهُ ان يمضي الى احد قال

فاني اتعلل حتى يأتيني عائداً فقال الفضل لاسحيل الا تعود امير المؤمنين قال بلى فمضى به اليه وكان اخوهُ قد وجه اليه انهم انما يريدونك لتشرب معهم وتغني لهم فان فعلت فانا انت اخي فلما دخل على الرشيد رقعهُ واكرمهُ وقال اني وجدت بك راحة واشتهيت الطعام فقدمت المائدة فاكلوا ووصف الطبيب اقداح الشرب فقال الرشيد والله ما شربنا حتى يشرب اسحيل فقال لهُ اتق الله يا سيدي فان عليَّ يميناً ان لا افعل شيئاً من ذلك فقال لا بدَّ من الشرب فشرب ثلاثة اقداح وسقاهُ مثلها ثم مدت مائدة وخرج بعض الجواري يضربن وبعض يغنين فطرب الرشيد واسحيل وتناول الرشيد عوداً ووضعهُ في حجر اسحيل وكان في يد الرشيد سبحة فيها عشر قطع اشتراها بثلاثين الف دينار فوضع السبحة في عنق العود وقال غنِّ وكفر عن يمينك بثمن هذه السبحة فاندفع اسحيل يغني ويقول

لعمرك ما اهويت كفي لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
واعلم اني لم تصبني مصيبة من الدهر الا قد اصابت فتى قبلي

فطرب الرشيد وقال الرع يا غلام فعقد لهُ لواء على مصر قال اسحيل فوليتها سنتين واوسعتها عدلاً وانصرفت منها بخمسمائة الف دينار

وفي ذلك كله ادلة قاطعة على ان الامراء والعظماء كانوا يشربون الخمر ولا يتهون بنهي الشرع

وتواريخ العرب مشحونة بوصف الشراب ومجالسهِ وندمائهِ ودواوينهم مملوءة بالاشعار الخمرية مما ابدع فيهِ الشعراء بوصف الخمر وآنيتها الى ما ارتكبوا فيهِ مما لا تقدم عليهِ امة مؤدبة بآداب شرع شريف كالامة العربية. ولا يختص ذلك بالمتهتكين من الشعراء كابي نواس بل هو شامل لسراة القوم كعبدالله بن جدعان وحسان بن ثابت (قبل الاسلام) وامير المؤمنين ابن المعتز وصفي الدين الحلي وابن السماك وغيرهم

ولم تكن مقارفة الخمرة قاصرة على اهل المشرق بل شاعت عند اهل المغرب ايضاً ويظهر لنا ان هؤلاء اقبلوا عليها اكثر من اقبال اهل المشرق

اخذنا كتاب نفح الطيب لنذكر منهُ بعض الشواهد على ما تقدم فوقع في يدنا الجزء الثاني منهُ ففتحناهُ فانفتح عند الصفحة ١٦٥ وفيها ابيات يقول ناظمها

افدي اسماء من نديم ملازم للكؤس راتبْ
قد عجبوا في السهاد منها وهي لعمري من العجائبْ
قالوا الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكبْ

وقصة هذه الابيات على ما في نفح الطيب ان ابا عامر ابن شهيد حضر ليلة عند الحاجب ابي عامر بن المظفر بقرطبة فقامت تسقيهم وصيفة صغيرة ولم تزل تسهر في خدمتهم الى ان همّ جند الليل بالانهزام وكانت تسمى اسماء فعجب الحاضرون من مكابدتها السهر طول ليلتها على صغر سنها فسأله المظفر وصفها فصنع هذه الابيات ارتجالاً . ويتضح من ذلك انهم كانوا يشربون الراح من المساء الى الصباح . غفر الله لهم

وفي الصفحة الثانية ان الوزير ابا العلاء دخل على الامير عبد الملك رزين في مجلس انس وبين يديه ساق يسقي خمرين من كاسه ولحظه ويبدي درين من حاجبه ولفظه

وفي الصفحة الثالثة ان عبد الله بن عاصم صاحب الشرطة بقرطبة دخل على الامير محمد ابن عبد الرحمن الاموي ملك الاندلس وبين يديه غلام حسن المحاسن فقال الامير يا ابن عاصم ما يصلح في يومنا هذا فقال عقار ينقد الدنان ويؤنس الغزلان فاستضحك الامير ثم امر بمراتب الشاء وآلات الصهباء

فقلنا صفحات قليلة فاذا نحن بنوفية ذي الوزارتين بن زيدون في ولادة بنت المستكفي الاموي وقد ابدى فيها من الوجد والحنين ما يعذره عليه الشعراء الى ان قال

تأسى عليك اذا حنت مشعشعة فينا الشمولُ وغنانا مغنينا
لا اكؤس الراح تبدي من شمائلنا سيما ارتياح ولا الاوتار تلهينا

فوقفنا عند هذا الحد ولم نزد خوف الاطالة على غير طائل ورجعنا عن كتب اللغة والادب واثقين ان الذين كانت بيوتهم عامرة بالجواري والوصائف لم يكونوا يمتنعون عن الراح وان ذوي السمة منهم كانوا يشربونها ويقولون فيها ما قاله عبد الله بن جدعان

شربت الخمر حتى قال صحبي الستَ عن السفاه بمستفيق
وحتى ما اوسد في ميت انام به سوى الترب السحيق
وحتى أُغلقَ الحانوت دوني وآلست الهوان من الصديق

ويصفونها لاخوانهم كما وصفها الصفي الحلي بقوله

خذ فرصة اللذات قبل فواتها واذا دعتك الى المدام فواتها
واذا ذكرت التائبين عن الطلى لا تنسَ حسرتهم على اوقاتها

لكن جمهور الملك والمترزقين لم يكونوا على دين ملوكهم من هذا القبيل ويقيننا ان العلماء الفضلاء كانوا يتجنبونها ولذلك لم يبلغ الناس من معاقرة الخمرة في ممالك العرب ما بلغوه في ممالك الروم ولا في ممالك الافرنج